أشباح بيروت وكوابيسها

يوسف حاتم

1

في احدى مقابلاته، قال المخرج غسان سلهب: "السينما بالنسبة اليّ اقدر الفنون على التقاط شبح الحياة، والانسان بعزلته المحتومة يذهب رويدا الى حالة الشبح لا سيما اذا كان محيطه، مثل بيروت، لا يترك له مساحة للتنفيس، وأخذ مسافة من التحولات". غسان سلهب في فيلمه "اطلال" (يعرض حاليا في الصالات)، يحكي عن إنسان في بيروت التي لا تتوقف عن التحول. عن الشبح في هذه المدينة التي تتراكم فيها الاشباح. يروي قصة طبيب محاصر يوميا بأخبار فلسطين والعراق ومزارع شبعا والجنوب اللبناني، لا يلبث ان يتحول مصاص دماء، والناس لا يقاومونه بل يستسلمون له، ويعيشون اغواءه كما يعيش المشاهد اغواء الصورة السينمائية. والحال، انه حين شاهدنا فيلم "اطلال" بدونا كأننا هربنا من الواقع اليومي لبيروت لنشاهد صورة تشبه حياتنا، لكنها ليست الحياة. فالناس في فيلم سلهب يستسلمون لمصاص الدماء تماما كما تستسلم الجماهير للقائد المفدى. هذا يغوي جماهيره والدراكولا يغوي ضحاياه. هكذا اصبحت بيروت مدينة كابوسية لا تطاق، محكومة بالعبثية والفوضي والتلاشي والخواء الروحي، وربما هي استسلمت للدراكولا الايديولوجي.

سوداوية سلهب كابوسية اذ يتهم الاب في "المحاكمة" ابنه ويأمر بأن يفرق نفسه (يتقبل الابن ذنبه المفترض ويرمي نفسه في النهر طواعية). والد كافكا في نظر ابنه، صورة مصغرة للمجتمع الضاغط الذي يدفع الى الاحساس بالغربة، ويخنق شخصية الانسان، فالغربة نتاج العلاقات الاجتماعية وقد عاشها اول الامر في شكل علاقته بأبيه، على ما لاحظ روجيه غارودي. والد كافكا هو مثل الجماعات التي تحكمنا وتنزع عن يومياتنا ما تبقّى من طمأنينة.

كوابيس بيروت ليست بعيدة عن حياتنا اليومية، ودراكولا سلهب ليس بعيدا عن الواقع اللبناني. انه مرآة له. نحن مثل كارلوس شاهين في الفيلم، تحاصرنا اخبار "الحروب الصغيرة" والتوترات والتشنجات. كل يوم نفكر في الهجرة والرحيل، لأننا نخاف ان نصبح دراكولات. مدينتنا تحاصرها التوترات الاقليمية، هي لا تحوّل الساكنين فيها اشباحا فحسب، بل مهددة في معظم الوقت بالاشباح الخارجية. هناك شبح تنظيم "القاعدة" وشبح "بوسطة عين الرمانة"، و"شبح" النظام السوري، وشبح اولمرت، وشبح "حزب الله"، وشبح الاغتيالات، وشبح المخيمات، وشبح ايران، وشبح الأمل، وشبح اليأس.

2

بيروت الشبحية والدراكولية الآن، كانت دائما واجهة لما يدور في العالم العربي، وربما في العالم أجمع. ويبدو انها لم تعد تمتاز عن مثيلاتها من المدن العربية بشيء الا بالأشباح وبنقل الخلافات السياسية الى الاعلام، كمادة يومية دسمة للراغبين في تتبع مجريات الأحداث.

بيروت، تلك المدينة الضاجة بـ"شبح" الحياة في الخمسينات والستينات، تراها اليوم تضج ضجيجاً كابوسيا مختلفاً لا يرغبه الكثيرون، او باتت مثل ثكنة وليس مدينة. أمام كل مبنى ينتشر الحراس، وفي كل شارع تنتشر الدوريات العسكرية خوفا من "اشباح" محتملة. هذه المدينة، وإن كانت مفتوحة على الحرية، فإنها حرية عرجاء. تحتوي المسارح لكن من دون مسرحيات، او لنقل ان تمثيل السياسيين غلب التمثيل الحقيقي، وجعل الممثلين عاطلين عن العمل. هذه المدينة الشبحية فيها الكثير من المثقفين، لكن هل من دور ثقافي، وخصوصا مع تنامي الفرز الطائفي والانقسام السياسي الحاد، وشيوع ثقافة التخوين، الى حد ان إحدى الطوائف لا تتحمل صوتا اعتراضيا واحداً، والمتأمل في النقاش الذي جرى بعد مقال منى فياض، "ان تكون شيعيا اليوم"، يعرف قصدنا.

3

لا شك ان الشبحية تزيد في بيروت لأن السياسة احتلت كل شيء في الشارع، في العلاقات اليومية، والزوجية، والمبغى والملهى والمقهى، في الطفولة والشيخوخة، في الثياب والمنازل والسيارات. دخلت السياسة في الامكنة الخطأ، وغابت النقاشات والحوارات لتحل محلها العصبيات والعنصريات، وغابت الافكار لتحل محلها الكتابات التي تحرّض على الفتن والاغتيال والقتل، وصعدت موجة العبثيات كبديل من الممكنات السياسية، واحتضرت الندوات لتكرس فكرة الحشود والجماهير الصلبة. بات الحديث الأكبر في النسيج الثقافي ليس عن بيروت، الدور بل عن بيروت النوستالجيا ما قبل الحرب، ليس عن بيروت "المركز" بل عن بيروت "الضاحية الجنوبية"، اذ كل شيء معلق بحبالها، تماما كما هي الحال في الدولة المعلقة في حبال الجماعات والطوائف. وليس غريبا القول ان "الضاحية" ذات اللون الواحد، اصبحت هي الصانع الأبرز في السياسة اللبنانية منذ ما بعد اتفاق الطائف. دائما تحاول اضفاء لونها الواحد على تعددية بيروت، وما على المرء الا ان يتحمل تعنت هذا الزعيم او ذلك المزعوم، وما عليه الا ان يتأمل الكوابيس السائدة ربما لإنقاذ نفسه من براثنها.

4

بيروت الكابوسية والشبحية نلمحها في بعض الروايات التي صدرت اخيرا. كتب ربيع جابر في روايته "تقرير ميليس" عن الزمن العبثي المعلّق والتعب المستشري في اوصال المدينة. بطل الرواية امضى حياته في هذه المدينة المتحولة ابداً وامتلأ بقصص جدته عنها في مراحل تكوّنها الاولى. يتذكر معالمها المندثرة ويراقب تحولاتها المتناقضة. يستعيدها، ويصير الخوف من فقدانها ذريعة للحب. لكنه حب يأخذ اشكالاً تعبيرية متناقضة، فـ"المدينة تحيا وقتاً ثم تتساقط. البيت يحيا عقوداً ثم يقع. المدينة تقع كذلك. مشكلتك انك مولود في لحظة سيقع فيها البيت". حيث الثياب لا تبلى والناس لا يتقدمون في السن. وحيث جرذ في حجم جبل، جرذ آكل الارواح، يوقظه من نومه دوي انفجارات بيروت. تكاد رواية جابر تكون عن موت معلن لشخصية محايدة، هي شخصية موظف في شركة هندسية يموت بسكتة قلبية يوم اغتيال رفيق الحريري. اما سامر ابو هواش فيرسم في روايته "عيد العشاق" بورتريهاً لجيل يعيش عند تقاطع زمنين. في مدينة كل شيء فيها قابل للتبدل، للانهيار في كل لحظة ولتبديل وجهة الأبطال. حدث واحد يقسم الرواية جزءين، ومعه حياة هؤلاء الأشخاص، الى ما قبل 14 شباط 2005 وما بعده. لكن هذا التاريخ في الرواية ليس حدثاً سياسياً بقدر ما هو عامل محفّز. انها مرآة من مرايا الكوابيس.

5

بيروت الكابوسية نعيشها في العمران العشوائي الذي يشبه واقع الاجتماع اللبناني العشوائي أيضا. في احدى مسرحياته القديمة سمعنا روجيه عساف يقول: "البنايات عم تضرب براسي". الارجح ان المباني كلها تضرب بطمأنينتنا، تجرنا الى الكوابيس، او تجعل الكوابيس تخرج من نوافذها، وقد زاد الامر تعقيدا بعد قصف الضاحية الجنوبية وتحويلها ركاما.

إذا كان العمران البائس في منطقة "الرمل العالي" شكل شبحا لحرب صغيرة، فبيروت، "المدينة العريقة" كما تسمى، تعيش على وقع الشبح المخيماتي من جهة، وشبح الأبراج العالية في منطقة "السان جورج" وعين المريسة وبيروت الشرقية من جهة ثانية. مخيمات تأكل كل شيء في رعاية المنادين بـ"الدولة القادرة والعادلة"، وابراج تقترب اكثر من البحر، فتقفل الواجهة البحرية، في رعاية الشركات العقارية، واصحاب رؤوس الأموال.

هكذا يجعلنا العمران العشوائي الشبحي في بيروت والضاحية، نعيش كابوس المشهد العام. ينظر المرء إلى بيروت اليوم من تلة الحازمية، فلا يرى البحر. السبب في ذلك فوضى بيروت التي تتيح اليوم لكبار التجار العقاريين أن يبنوا كيفما شاؤوا للاستثمار والبيع من أجل تحقيق الأرباح السريعة، وتتيح لأرباب الايديولوجيا ومناهضي الشرق الأوسط الجديد زيادة البؤس بؤسا في الرمل العالي والاوزاعي ولبنان كله.

العمارة، كما يقول فيكتور هوغو "هي صندوق التاريخ، ومرآته، وكتاب الانسانية الاعظم، والاكثر تعبيرا وبقاء". هل هي كذلك في بيروت؟ أليست هي مقبرة الذكريات والتاريخ؟

6

بيروت مدينة شبحية. شبحها الثقافي كان يقلق العالم العربي، وتبدو اليوم قلقة من الاشباح التي تحوم حولها من الشرق والغرب، ومن الجنوب والشمال. انها رهينة ما يجري في العالم. من يتجول في شوارعها لا يشعر انها مدينة التلاقي والثقافة بل يخال نفسه في مدينة هجرها أهلها على حساب آخر مبتكرات السياسة والموضة. شارع الحمرا الذي له نصيب في نوستالجيا بيروت، لا يجد زائره الا أخر صيحات الموضة. بل اكثر منذ ذلك، هناك المحال الكثيرة التي تريد تصفية بضاعتها بسبب الاوضاع المتردية. حتى الخيم الرمضانية لم تعد موجودة في بيروت. ايضا لم نعد نلمح اعلانات لحفلات الفنانين ولا للراقصات. الملاهي الليلية لا تزال في معظمها مقفلة، كأن حركة الليل في بيروت تموت لتزداد الاشباح. هذا من دون ننسى ان البحر اللبناني كان شبه ميت هذه السنة.

بيروت مدينة محيرة باميتاز، فيها الجميع على حق والجميع على خطأ، على ما يقول احدهم. ففي شوارع الأشرفية مثلاً تجد كتابات تؤيد "عون للجمهورية"، وفي شوارع أخرى ترى من يناصر "بشير حي فينا، وجعجع عم يفدينا"، وفي برج حمود شعارات حزب الطاشناق وفي الضاحية صور "نصر من الله"، وفي عائشة بكار صور سعد الحريري، وفي منطقة القنطاري ترتفع على عمود واحد رايات لأربع جماعات مختلفة يختلط فيها الدنيوي بالالهي. الأحزاب اللبنانية هي ايضا مثل الأشباح في بيروت، حيثما ولى المرء وجهه في بيروت واماكن اخرى ثمة وجوه للفيديراليات والسلطات لا للسلطة الواحدة. الجماعات تخاف شبحية بعضها البعض. الحضور الكلي للجماعات في كل مكان، ايماء الى غياب الدولة، والى نرجسية الزعماء وإعجابهم بذواتهم فحسب، بما يساهم في حرق ما تبقّى من لبنان.

جدران بيروت مرآة للفرز الطائفي الذي يشهده لبنان. هي فعل غريزي مناقض للثقافة بامتياز.

7

بيروت الشبحية والكابوسية لا تزال معشوقتنا رغم كل شيء، يتراكض اليها العديد من المنتدين والمؤلفين والمثقفين والفنانين وكل القراء. لا تزال تستند الى الذاكرة مع غموض في المستقبل وتوتر في الحاضر. انها مكان التلاقي، وإن يكن الحاضر في دائرة الشبحية. انها المدينة التي تحفزنا على التشبث بمكانها وذاكرتها. مع اننا لا نحب النوستالجيا، نحبها لأننا لا نملك مدينة اخرى. يقول إدوارد هال، أحد المتخصصين بالمكان: "صلة الإنسان بالمكان هي الصلة بكيفية تقطيع المكان واستعماله من الأفراد، أي أنه نزوع نحو إزاحة المكان عن حقيقة نسيجه وامتداده التاريخي والحياتي إلى كونه شاهدا على اللقاء". بيروت "بيت طفولتنا"، وإن كانت محكومة بالاشباح، وهي بالنسبة الى الكثير من اللبنانيين مثل لبنان بالنسبة الى العرب. هي المدينة المهجوة والتي نحب العيش فيها. في كتابه "جماليات المكان" يبحث غاستون باشلار في تحديد القيمة الإنسانية لأنواع المكان الذي يمكننا الإمساك به، والذي يمكن الدفاع عنه ضد القوى المعادية، أي المكان الذي نحب، وهو مكان ممتدح لأسباب متعددة مع الأخذ في الاعتبار الفروق المتضمنة في الفروع الشعرية. ويرتبط بقيمة الحماية التي يمتلكها المكان ويمكن أن تكون قيمة إيجابية. قيمة متخيلة سريعاً ما تصبح هي القيمة المسيطرة. يستند باشلار الى النقطة الأساسية وهي ان البيت القديم، او بيت الطفولة، هو مكان الالفة، ومركز تكيف الخيال، وعندما نبتعد عنه نظل دائماً نستعيد ذكراه.

هكذا هي بيروت ■